المحاضرة السادسة:

السيرة الشعبية: الهوية المحكية

حكواتي تمشق ربابته إذا جنّ الليل ناسجا فنتازيا لأحلام الشعب و ما تبتغيه من مثل في إنسانها الأعلى (بطلها بوصفه " السوبرمان")، راسما فسيفساء من الخيال.

تمهيد:

تصدر السيرة الشعبية عن رؤية حلمية، تتحرى الإيهام بالسامي المثالي المفارق لمنطق الإمكان عبر نسق تخييلي فتكشف بذلك عن الفطرة الشعبية التواقة إلى مجاوزة محدودية القدرة المتاحة المولعة بالتزود الخيالي (التعويض الخيالي)، ولكن إغراقها في الخيال و في العجائبية لا يعني بأي حال من الأحوال بعدها عن الواقع العربي و الهوية العربية، بل إنها صدى للبيئة العربية؛ تعكس صورة مشرقة للخلق العربي الإسلامي و المثل العليا بما تحمله من حقائق تاريخية و ما ترصده من تقاليد و عادات تمكننا من رسم جغرافيا للهوية العربية الإسلامية.

تعريف السيرة الشعبية:

يحيل لفظ السيرة دلاليا على الطريقة، و السيرة هي: "الطريقة المحمودة المستقيمة".[1]

كما تدل على الحديث، فيقال: سيّر سيرة؛ حدّث حيث الأوائل.

و تشير الدلالة الأخيرة إلى أمرين؛ الأول تضمُن السيرة معنى الخبر أو الحكاية، والثاني الإشارة إلى قدم مرويات السيرة و ربطها بأحاديث الأولين. ثم أصبحت السيرة بدلالتها الاصطلاحية العامة في الموروث الثقافي العربي و الديني خاصة تحيل على

---

[1]- ينظر الفيروزبادي" القاموس المحيط".موسسة الرسالة. بيروت.ط٢ .١٩٨٧.ص:٥

الترجمة المأثورة لحياة الرسول، و اقترنت بالمغازي الدالة على مناقب الغزاة(أعمالهم البطولية." [٢]

ثم توسع مفهوم السيرة تبعا لتنوع الأشكال السيرية التي تنطوي تحت هذا النوع من القصص، فأصبح مصطلح السيرة الشعبية يدل على:" مجموعة من الأعمال الروائية الطويلة ذات سمة فنية متشابهة و ذات أهداف فنية متماثلة "[٣]

و التعريف العلمي المعاصر للسيرة يحدد مكانها بين التاريخ و الأدب؛ فهي تاريخ من حيث تناولها لحياة فرد بطل له أهمية كموجه للأحداث في عصره، و هي أدب من حيث كونها انطباعات مؤلفها و تتلون بثقافته و وضعه الاجتماعي و موقفه من الحياة.[٤]

موقع السيرة الشعبية في الثقافة العربية:

تنتمي السيرة الشعبية إلى مرويات العامة ، و هذا الانتماء هو الذي جعلها تتشكل في منأى عن الثقافة المتعالمة التي كانت تعنى إجمالا بأخبار الخاصة، الأمر الذي أفضى إلى عدم العناية بهذه المرويات تدوينا و وصفا.[٥]

إن تغييب مرويات العامة و السكوت عنها يرجع إلى موقع العامة من الثقافة العربية الاسلامية؛ إذ لم تحتل العامة في البنية الثقافية إلا موقعا هامشيا و لم ينظر الفقهاء إليهم إلا بوصفهم مجموعة من الرّعاع لا يمكن الاطمئنان إليهم. [٦]

---

[٢]- فاروق خورشيد، محمود ذهني" فن كتابة السيرة الشعبية" منشورات اقرأ. بيروت.ص:٢١

[٣]- المرجع نفسه. ص٢٢

[٤]- ينظر المرجع نفسه.ص:٣٣

٥- ينظر عبد الله إبراهيم" السردية العربية،بحث في البنية السردية للموروث الحكائي" المركز الثقافي.بيروت ص:٥٥.

٦- ينظر الغزالي"فيصل التفرقة بين الإسلام و الزندقة"ت سليمان دنيا.منشورات اقرأ.ص:٦٩

و قد أدى ذلك إلى جهل شبه تام بالأصول الأولى لهذه المرويات الشفاهية العربية، فضلا عن الجهل بطرائق تكونها.

و تواجه الباحث في مجال السيرة الشعبية إشكاليتين:

أ- تشكيل السير الشعبية:

لم تشر المصادر الأدبية و التاريخية إلى السيرة الشعبية إلا إشارات مقتضبة في سياق ذمها، و لذلك فالغموض يحيط أشكالها الأولى و الأسباب الكامنة وراء ظهورها، ذلك أن التدوين المتأخر الذي قام به منشدوها لا يقدم إلا صورة لعصر أولئك المنشدين و لكن المؤكد أن جذورها ترجع إلى زمن أقدم من زمن تدوينها.

و لا يمكن حصر أسباب ظهورها إلا من باب تأويل متونها الضخمة كونها تستدعي بطولات أشهر فرسان العرب ليكونوا أبطالا لعصور غير عصورهم، و هذا ماجعل بعض الباحثين يعلّلون ظهورها على أنه نوع من استحضار الماضي المجيد لمواجهة عصر انحسر فيه الدور العربي، و هناك من يعزو أسباب ظهورها إلى أسباب أدبية تتمثل في الحاجة إلى ظهور شكل إسلامي للتعبير الأدبي يبعده عن مظان الارتباط بالأشكال الأدبية المنحدرة من الأسطورة الوثنية. و يعزو البعض الآخر ذلك لأيام العرب و ما حوته من أخبار كثيرة. [٧]

ب- الإنشاد:

لإنشاد السير الشعبية العربية تقاليد شبه ثابتة؛ إذ يقوم المنشد بقراءة جزء من أجزاء السيرة، و قد ترافق القراءة الموسيقي(الربابة)، و قد يستعين بالسيف فيومئ

[٧]- ينظر فاروق خورشيد، محمود ذهني "فن كتابة السيرة الشعبية".ص: ٤٥

به. و يحث المنشد– الذي يعتبر راويا– مستمعيه للمشاركة الوجدانية و لا يلتزم حرفيا بالمرويات المدونة و إنما يتصرف فيها تبعا لحالة الانفعال التي يثيرها في المتلقي.[٨]

تجلي الهوية العربية في سيرتي الأميرة ذات الهمة وعنترة بن شداد :

تحملنا السيرة الشعبية على استحضار صورة الحكواتي؛ و قد تمشّق ربابته إذا جنّ الليل راسما للناس فانتازيا تتجلى من خلالها البطولة في كل صورها. و لكن نظرة عجلى لتلك السير تبين لنا ما تبطنه من قيم كالشجاعة و الحكمة و إلى أي مدى تشكل فضاء دراميا ملحميا حافظا لذاكرة الشعوب.

بل إن بعض تلك السير وجدت أساسا لتمكين الهوية الثقافية و تمكين عوامل التغريب و المسخ التي تتعرض لها الشعوب العربية عند كل اجتياح.

و لتعزيز هذا المعطى التبريري لدوافع إنشاء و تداول السير يشير البعض إلى أهمية دراسة الشعوب و تراثها لفهم و تفكيك الذاكرة الثقافية. و في هذا الإطار يرى بعض المهتمين بالسيرة و دورها في تشكيل الذاكرة الثقافية المقاومة للعدو أن سيرة "الأميرة ذات الهمة" هي سيرة فلسطينية شعبية تداولتها الأجيال منذ القرن الثامن الميلادي حتى يومنا. و قد شكلت جزءا أصيلا من الذاكرة الفلسطينية ذلك أنها باتت تعطي فضاء متسعا باتساع السيرة نفسها للحلم[٩].

٨- ينظر عبد الله إبراهيم " السردية العربية". ص: ١١٢

٩- ينظر سعيد جبار"من السردية إلى التخييلية". منشورات الاختلاف :١١٨

سيرة الأميرة ذات الهمة، سيرة يمتزج فيها التاريخي بالمتخيل الجمعي لتنتج ملحمة عربية تغطي قرنا و نصف القرن تقريبا من حكاية الصراع بين العرب المسلمين و بين الروم البيزنطيين الذين لم يتوقفوا عن تهديد أطراف الدولة الإسلامية.[١٠]

و الأهم هو ما مثلته سيرة الأميرة من خلق تصور جديد عن مكانة المرأة المسلمة في الوعي الجمعي آنذاك الذي جعل من أميرة فلسطينية حجازية أسطورة مجاهدة تفتح القسطنطينية تلك المدينة الحلم التي قهرت الجيوش الجرارة دون أسوارها.[١١]

و ليس مصادفة أن السيرة التي اعتبرت على نطاق واسع دليلا شعبيا على احترام الثقافة العربية للمرأة تمثل أحد أشهر القصص الشعبية العربية التي تعكس القلق العربي القديم من مؤامرات كانت و لا تزال تحاك ضد العرب و ليس مصادفة أيضا أن يحافَظ على هذه السيرة كأثر ينتمي للثقافة الإنسانية و في مكتبات الغرب تحديدا، فلا يستبعد أن يكون السبب هو كونها "ملحمة عربية مجسدة لمختلف الرؤى و التصورات العربية الإسلامية و هي من هذه الزاوية تلتقي مع مختلف المصنفات العالمة و إن اختلفت طريقتها في التقديم و التمثيل و صعّدت كل ذلك بواسطة التخييل" [١٢]

هذا البعد الثقافي الحافظ للذاكرة و الهوية العربية يتجلى أيضا في سيرة عنترة بن شداد حيث تتحدد البيئة العربية تحديدا يبرز العادات و التقاليد التي كانت سائدة آنذاك من إجارة للمستضعفين و إكرام الضيف و الأخذ بالثأر و العناية بالخيل والاهتمام بالإبل و فرحة الأب عندما يبرز من أبنائه فارس له قدرة و قيمة ثم مكان المرأة الذي يشبه المتاع و المال؛ فسيرة عنترة " تحتفل احتفالا شديدا

١٠- ينظر نعمة الله" فن السيرة الشعبية في الأدب العربي". المركز الثقافي العربي.بيروت.ص٢٢

١١- شوقي عبد الحكيم" الأميرة ذات الهمة،أطول سيرة عربية" مؤسسة هنداوي للتعليم. القاهرة.

١٢- عبد الله إبراهيم" السردية العربية":٣٤

بالمكان و الزمان، و هي تدور في الحقبة الزمانية السابقة للإسلام مباشرة و قد فهم المؤلف هذا و حرص عليه حرصا و اضحا و شديدا حتى أننا نستطيع أن نقول إن سيرة عنترة وثيقة فنية حية ترسم صورة للحياة العربية قبل الإسلام"[١٣]

و باعتبار بطلها عبدا، فقد رسم المؤلف صورة لحياة الرعي و أعمال العبيد، و حركة السقاء و طعام القبيلة و رحلتها من مكان إلى مكان آخر، و حين يصل هذا العبد إلى مرتبة السادة، فإنه يرسم لنا صورا عن اجتماعات الشورى في القبيلة و مجالس السمر بين رجالها و نسائها.

كما وظف البطل ليحدد لنا ملامح و هوية الفارس العربي و مدى ارتباطه بفرسه و قيمة الفرس في الحياة العربية، و مغامرات السلالين لنهب أشهر الخيول[١٤]

و تمكن البطل بفضل بطله المحب أن ينقل إلينا صورا عن حياة المحبين و لقاءاتهم في الجزيرة العربية و عادات الحب و تقاليده.

و محاولة مؤلفها نسبتها للأصمعي إنما يحمل دلالة هامة هي محاولته الإيحاء بمدى ما في هذه السيرة من حقائق تاريخية و جغرافية. و نحن حين نضع ضمن الأهداف الاجتماعية للمؤلف رسم صورة للحياة العربية و رسم تقاليدها وعاداتها ؛ فليس عنترة عند كاتب السيرة بطلا ما، و إنما هو بطل عربي يعيش في هذه البيئة المحدودة و ينتقل منها إلى مختلف البيئات العربية الأخرى ثم ينتقل إلى البيئات المتاخمة للحدود العربية، و ينتقل أيضا إلى البيئات الخارجة عن هذه الحدود.[١٥] و حسب هذا الإطار يموقع المؤلف معلوماته في السيرة؛ ففي حديثه عن المجتمع العربي يتضح أنه يعرف كل التفصيلات الدقيقة التي

١٣- فاروق خورشيد، محمود ذهني" فن كتابة السيرة الشعبية" ص ٢٣٠

١٤- ينظر المرجع نفسه. ص٢٣٢

١٥- ينظر "سيرة عنترة بن شداد". طبعة بيروت

تميز هذا المجتمع و تحدد تركيبته، فتصبح صورة هذا المجتمع غاية في الوضوح؛ مليئة بالحركة و الحياة، جليّة الهوية و الكينونة.

و هو حين يخرج للحديث عن المجتمعات المتاخمة للحدود العربية يبدو في صورة العربي الغريب عن هذه المجتمعات و الذي يعرف عنها الكثير بحكم ارتباطها ارتباطا مباشرا بالجزيرة العربية. و لكنه حين يصل إلى ما وراء الحدود العربية نلمح فيه صورة المأخوذ أو المستنكر لمعالم الحضارة و المدنية الغريبة عليه و التي ترتبط معلوماته عنها بالحدس وبالظن.[١٦]

و يطالعنا تجل آخر من تجليات الهوية العربية و إعلاء شأن العربي من سيرة عنترة بن شداد؛ حيث يدافع مؤلفها عن قضية الشعب العربي أمام الأجناس التي دخلت الإسلام و كانت تزعم لنفسها عراقة ومجدا يفوقان عراقة و مجد العرب، وذلك بأن نجد هرقل و كسرى يقران لعنترة بالفروسية بل و يعلي المؤلف من شأن سيفه العربي بأن يجعله سببا في بناء ملكهم و الحفاظ عليه من الضياع.

و يتلاعب المؤلف كثيرا بهذا الموقف كثيرا؛ فحين ينهزم الفرس أمام الروم يقف عنترة إلى جوارهم فينتصرون و حين ينهزم الروم أمام الفرس يقف عنترة إلى جوارهم فيستردون ما فقدوا.[١٧]

و يؤكد المؤلف على مكانة الفارس العربي في كل جزء من أجزاء السيرة مما ينم عن موقف الأمة الإسلامية من دعوى الشعوبيين التي تزعمها الفرس؛إذ أنها ترسم صورا للصراع بين العربي كفرد و بين الفارسي كفرد و تؤكد أن عنترة _

---

[١٦]- ينظر فاروق خورشيد، محمود ذهني" فن كتابة السيرة الشعبية" ص:٢٤١

[١٧]- ينظر فاروق خورشيد، محمود ذهني" فن كتابة السيرة الشعبية". ص٢٠٢

البطل العربي الهمام _ يفوق أبطال الفرس المعروفين من أمثال "رستم" القائد الفارسي المشهور.

و من ثمة فإن شخصيات السيرة تعكس دفاعا عن أكثر من قضية من قضايا صراع العرب مع غيرهم من الشعوب . و تستهدف سيرة عنترة بن شداد:"مضامين سياسية بذاتها تلح على العصر الذي كتبت فيه ، كما تلح على أهل هذا العصر الذين احتفوا بسيرة عنترة كمخرج لكثير فني لكثير من مشكلاتهم"[١٨]و البيئات التي جرت فيها تجيب عن أكثر من سؤال من أسئلة الهوية

هذا و تعتبر السير الشعبية صدى للبيئة العربية بما تنطوي عليه من قيم اجتماعية و حضارية و أخلاقيات محاولة بذلك التوطيد لهوية عربية و كينونة قيمية حياتية خاصة إذا علمنا أن الهوية:" ليست بنية بسيطة، بل وسيلة لفهم مزيج التطابق و الاختلاف اللذين تتكون منهما حياة الإنسان"[١٩]. و بالعودة لسيرة عنترة بن شداد نجد أن المؤلف قد استدعى شخصيات من قبيلة بني عبس تتسم كل واحدة منها بخصال جوهرية هي حقيقة الهوية العربية؛ فزهير و ابنه

---

[١٨]- المرجع نفسه ص:١٩٤

[١٩]- ياملو راي "تثيما الهوية : نص الذات" ت يوئيل يوسف.دار المأمون للترجمة و النشر. بغداد:٨٠

قيس يتصفان بالحكمة و أصالة الرأي، و عروة بالشعر و الفروسية و تزعمه لجماعة الشعراء الصعاليك، أما عنترة فهو تكثيف رمزي للدفاع عن أكثر من قضية و الدلال على أكثر من خصلة من الخصال العربية. و حين اختار واضع السيرة شخصية عنترة ليجعل منه بطلا للسيرة استغل باقي الشخصيات لتسهم بسماتها و مآثرها في إبراز القضايا التي يدافع عنها.

و تدخل السير الشعبية باب الإبداع السردي بثقل ذاكرتها و ثراء ما تحتويه من تجارب الشعوب العربية، و حلمية ما تقدمه من رؤى و تأويلات مشكلّة بذلك معمارا يؤرخ لوعي عربي.

و لقد حظيت معظم قبائل العرب بذكر خالد بعد الإسلام لارتباطها بأكثر من بطل لعبوا أدوارا هامة في نشر الدعوة المحمدية و لكن قبيلة عبس كان حظها قليلا، أو معدوما و لا يأتي ذكرها إلا داخل قبيلتها الأم " ربيعة" و ربما يعود ذلك لانتهاء تكتلهم قبل الإسلام و فناء أكثرهم.[٢٠] فكان من الطبيعي حين يتفاخر الناس بعد الإسلام بمشاركتهم في الدعوة أن يبحث بن عبس عن سند يعتمدون عليه في أن يكونوا أصحاب حق في الدعوة الجديدة، و لهذا أخذ العبسيون يبحثون في تاريخهم فوجدوا أن أظهر شخصيات نقلها التاريخ الجاهلي إليهم هي شخصية عنترة، و بذلك استطاع مؤلف السيرة أن يجعل لقبيلة عبس مكانا في التاريخ. و أن يخلق لها كيانا يصلح أن يكوّن بيئة اجتماعية [٢١]

و تؤسس السيرة لرؤية متكاملة عن الثقافة العربية الإسلامية و تفرض نفسها كنصوص شاهدة على عصرها؛ يلجأ إليها دارس الأدب كما يلجأ إليها المؤرخ، و

---

[٢٠]- ينظر فاروق خورشيد، محمود ذهني" فن كتابة السيرة الشعبية".ص: ١٩٤

[٢١]- ينظر المرجع نفسه.ص:١٩٤

أحيانا المحدث و الفقيه، فهي وثيقة متعددة الأبعاد، عديدة المزايا تجعل من نفسها نصا مشكلا في مقاربته و التعامل معه.[٢٢]

و السير العربية في مجملها رصد للأنساب لأن الخطاب السيري" خطاب تولد عن الاهتمام بالأنساب الذي طبع السلوك العربي في فترة تاريخية معينة، و لهذا فقراءة السير في إطارها العام لن يخرج عن هذه الحدود التي رسمتها الثقافة العربية الإسلامية لهذا النوع السردي" [٢٣]

و يبدو أن العصبيات السائدة آنذاك كانت من المحفزات المساهمة في حيوية النص السيري سواء على مستوى التأريخ، أو تمرير قصدية معينة للقارئ و هو يتلقى هذا الخطاب.

السير الشعبية تنتج أنساقا مضادة للتواريخ الرسمية:(الهوية المضمرة)

تمثل السير الشعبية العربية واحدة من أخطر الأنواع السردية في إنتاج أنساق مضادة للتواريخ الرسمية، فقد أنتجت تاريخا متخيلا لمناوأة خطاب السلطة متحايلة بذلك على أنساق تهميشها و نبذها.[٢٤]

و بطريقة دراماتيكية و جذابة تنهض السيرة بكل أبطالها برسم هوية حقيقية للشخصية العربية بكل ما تنطوي عليه من قيم جوهرية حتى و إن كانت من المسكوت عنه؛ و هذا يعني أن تاريخا مسكوتا عنه قد غيّب و أقصي بفعل عوامل إيديلوجية و ثقافية.

---

[٢٢]- ينظر سعيد جبار"من السردية إلى التخييلية". منشورات ضفاف.ص١١٧

[٢٣]- المرجع السابق. ص: ١١٨

[٢٤]- ينظرعبد الله إبراهيم" السردية العربية".ص:٢١١

إن هذا الإقصاء و التغييب أوجد تمثيلات ثقافية احتفت بالمتخيَّل السردي المفارق للحقيقة التاريخية، و خاصة سيرة الأميرة ذات الهمة؛ ترد فيها الكثير من الأخبار كحيلة سردية، و هي منسوبة للأصمعي و سواه من الرواة في أمور متصلة ببعض الخلفاء و الحكام؛ تحتفي ببعضهم و تقصي بعضهم الآخر، و قد تعرضت هذه الأخبار لقدر من التحوير و التحويل النصي و فارقت التاريخ الرسمي.[٢٥] و من هنا أمكننا القول أن السير الشعبية العربية تؤسس لخزان معرفي رمزي مشحون بأنساق معرفية كاشفة في بنية العقل العربي، و لهذا فإنه يمكننا أن نسد شواغر التاريخ من خلال قراءة سير البطولة الشعبية في عدد من التجليات عميقة الدلالة، و أن نقرأ بإنصاف ثقافة شعوبنا المهمشة حين حمّلتها للبطل السيري ليرسخها في شكل عادات و تقاليد و معتقدات، راسما جغرافيا للهوية العربية.

يمثل بطل السيرة الجانب المأثور من الهوية العربية؛ فأبطالها ليسو محض شخصيات في أسفار، "لكنهم الوعاء الذي انصهر فيه فكر أمتهم و ثقافتها، فالبطل ليس تمثيلا للجغرافيا التي يختبرها بعد فتح الأرض بل هو تمثيل للمعرفو و الخبرات؛ إنه تمثيل لملامح أمة بأكملها"[٢٦]

و من العرف الاجتماعي ينمو وعي البطل و تتسع خبراته محققا هوية الجماعة و هو غير مفارق للواقع، لكنه ليس واقعا محضا، و ليس تاريخا يمكن رصده بدقة المؤرخ لأنه مشحون في أحايين كثيرة بصبغة عجائبية غرائبية؛ إنه وعي إنساني عربي جماعي.

---

[٢٥]- ينظر المرجع السابق.ص:٢١١

[٢٦]- المرجع نفسه. ص:٢١٢

تشكل المحكيات السيرية الشعبية العربية فضاء ملحميا حقيقيا، حافظا للهوية العربية الإسلامية، صحيح أنها ظلت ردحا من الزمن شفاهية و صنفت ضمن مرويات العامة المدنسة بالفحش و الركاكة و أقصيت من الثقافة المتعالمة،

إلا أنها ظلت منهجا و تراثا كاملا يحتفظ بكل مكوناته الثقافية و الجمالية بالهوية الجوهرية للذات العربية في أسمى تجلياتها، و تمكنت من الحفاظ عليها من موجات المد العالي التي تنتجها العولمة في ظل طغيان القيم الاستهلاكية و المسخ الحضاري.

– إنها فسيفساء من الخيال الذي يعضدّ صور البطولة في أبهى تجلياتها العربية فهي تعكس صورا عن مجتمعنا العربي، يمكن بدراستها معرفة الصورة الحقيقية لتكوين المجتمع العربي و حقيقة الصراعات الدائرة فيه و حوله.

– و السير الشعبية العربية نهمة إلى مراكمة أبلغ تمثيلات التفوق و الكمال لذلك كانت صور البطولة في السير مثالا ذهنيا للتجلي المطلق للقيم العربية الإسلامية بكل ما تنطوي عليه من ملامح النبل و الحق و الخير و الجمال و كل الصفات الراقية التي يضمّنها المؤلف للبطل السيري الذي يمكن اعتباره وجود مصفّى للهوية العربية.

كل ذلك في حيز درامي راسما فانتازيا لأحلام الشعب و ما تبتغيه من مثل عليا في بطلها و إنسانها الأعلى.

تنفتح السير الشعبية العربية على تأويلات لا متناهية، و على مخزون معرفي هائل لذا لا بد من إعمال مناهج حداثية من شأنها الكشف عن أسئلة الهوية والتمثيلات الثقافية لهذه المرويات الخالدة.

ب-